# الدين هو العلاج الأول للبشرية

## ( أثر التدين )

**للدكتور محمد يوسف موسى**

أستاذ الشريعة الاسلامية بكلية الحقوق

**اذا** عرفنا الفارق الضخم الكبير بين اعتقـــاد دين معين وبين التدين به فعلا والعمل بكل ما جاء به ، والنزول على أحكامه فى كل نأتى ونذر من الاقوال والاعمال ، فان أثر التدين هذا يكون كبيرا وخطيرا بلا ريب .

وذلك بأن الدين الحق يأمر بالخير والمعروف ، وينهى عن الشر والمنكر ، ويحث على الفضائل وينهى عن الرذائل ، ومن ثم ، يكون أتباعه والعمل به طريقا موصلا للعز والمجد فى الدنيا ، وللسعادة الحقيقية التى لا شقاء معها فى الدار الاخرى .

وان تاريخ الامم قبل الاسلام ، بل وتاريخ المسلمين انفسهم فى ماضيهم وحاضرهم ، شاهد صدق على ما نقول . فليس على من يخالجه ريب فى هذا ، الا أن يرجع الى التاريخ يستفسره ويستهديه ، وحينئذ يرى أن هذا الذى نقول قضية لاشك فى صدقها .

لقد أنزل الله تعالى التوراة على سيدنا موسى عليه السلام فكانت هدى ونورا ، ثم توالى من بعده الرسل فكان كل منهم كالمصباح يضىء لمن حوله السبيل ، ثم جاء سيدنا عيسى عليه السلام مصدقا لما بين يديه من التوراة ورسالات الرسل السابقين ، ثم ما لبث الناس حتى أخذوا ينحرفون عن الدين الحق شيئا فشيئا فأخذت الانسانية تنحدر عن الطريق المستقيم .

وما جاء القرن السادس والسابع لميلاد المسيح عليه السلام حتى بلغت البشرية من الانحدار أنه ما كان على وجه الارض قوة تمسك بها وتمنعها من التردى الى الهاوية ، اذ كانت الايام تزيدها سرعة فى هبوطها ، وشـــدة فى انحطاطها واسفافها .

وكان الانسان ـ كما يقول الاستاذ أبو الحسن على الحسنى الندوى فى كتابه : ماذا فسر العالم بانحطاط المسلمين ـ فى هذا الزمن قد نسى خالقه ، فنسى مصيره ، وفقد رشده وقوة التمييز بين الخير والشر والحسن والقبيح .

وذلك ، بأن الناس قد انصرفوا عن التدين بما كان عندهم من الدين الحق ، واكتفوا من الدين بالاسم والصورة دون اتباعه والعمل به . كما كانت دعوة الرسل والانبياء قد خفتت منذ زمن ، وكانت المصابيح التى أوقدوها لتنير للناس الطريق قد انطفأت من العواصف التى هبت بعدهم ، أو بقيت ولكن نورها أصبح ضعيفا لا ينير الا بعض القلوب ، فضلا عن بعض البيوت ، فضلا عن بعض البلاد .

وقد كان لهذا نتيجة أو نتائج طبيعية يعرفها التاريخ ، ولا نزال نرى بعض آثارها ، فقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة العملية ، ولاذوا بالاديرة والكنائس والخلوات ، فرارا بدينهم من الفتن ، وضنا بأنفسهم وجهودهم أن تذهب سدى بلا سميع أو مستجيب ، أو رغبة فى الدعة والسكون .

وهكذا ، تركوا تكاليف الحياة ومشاغلها وجدها ، بعد ان يئسوا من كفاح السياسة الغاشمة والمادة المستعلية والقوى الطاغية . ومن بقى منهم فى تيار الحياة وميادينها ، نراهم يسايرون أهل الدنيا ويشايعون الامراء والملوك ، ويعاونونهم على اثمهم وعدوانهم ، وعلى استذلال الضعفاء وأكل أموال الناس بالباطل ، وذلك بسبب أن رجال الدين أنفسهم نسوا الدين ، ولم يبقوا على التدين به والسير على تعاليمه ، ولم يعودوا يستمسكون بأوامره وارشاداته وأخلاقه .

وكان من هذا وذاك كله ، ان أصبحت الديانات الكبرى التى سبقت الاسلام فريسة العابثين والمتلاعبين بالدين نفسه ، وكعبة المحترفين المنافقين المتزلفين للامراء والملوك ، حتى فقدت هذه الديانات روحها التى تقوم بها ، فلو بعث أصحابها الاولون لما عرفوها !

وأصبحت الحضارة فى ذلكم الزمن وقد انحلت أخلاقها ، وساء نظامها ، فصارت لا تحمل للعالم رسالة ولا للامم دعوة ، ولا تملك تشرعا صافيا من الدين السماوى ، ولا نظاما عادلا ثابتا للحكم البشرى . وصار الاكاسرة والقياصرة والامبراطرة أشبه بالآلهة،حتى فرض بعضهم عبادته على الشعوب بجانب عبادة الله العلى الاعلى !

وقصارى القول ، نرى أن العالم فى ذلك التاريخ قد ظهر فيه الفساد فى البر والبحر ، فلم يكن هناك دين صحيح يهدى الى الحق والى الطريق المستقيم ، ولا أمة صالحة للحياة الطيبة ، ولا مجتمع يقوم على اسس متينة من الاخلاق والمبادىء والفضائل ، ولا حكومة تحكم بالعدل وتعمل على خير الشعوب ، ولا شعب يعرف حقه فيطلبه وواجبه فيقوم به .

على أنه كان هناك فى بعض البلاد نور يتراءى حينا هنا وحينا هناك ، ولكنه كان نورا أضعف من أن يضىء الطريق الوعر المظلم أمام السالكين ، فضلا عن أن يعم الامم والشعوب . ولعل ما يمثل هذه الحالة أصدق تمثيل ، ويقربها الى القلوب والعقول ، هذا الحادث الذى وعاه التاريخ ورواه لنا رواة ثقات .

والامر أنه كان هناك نفر من رواد الحق يطلبونه بكل سبيل ، ويلتمسونه هنا وهناك من البلاد المعروفة لهم حين ذاك . وكان من هؤلاء النفر « سلمان الفارسى » الذى شرق وغرب فى طلب الدين الحق ، وطاف من أجل هذا ببلاد الشام والروم يتطلب رجلا يهديه سواء السبيل ، فكان من أمره قصه هو نفسه ، ورواه عنه عبد الله بن عباس رضى الله عنهما .

وقد انتهى به المطاف الى بلاد العرب ، ثم الى « يثرب » قبيل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسعى اليه بعد أن شرفه الله بالبعثة وهجرته الى المدينة ، ولقيه وعرف أنه الرسول الذى كان مرتقبا ، وذلك بفضل العلامات التى ذكرها له صاحبه الذى كان قد لحق به بعمورية من بلاد الروم وكان على المسيحية الحقة ، وكان أن أسلم على يديه ، واطمأن الى أنه يهدى الى من جاء بالدين الحق ليخرج العالم من الظلمات الى النور

تلك كانت حالة العالم وقد فقد الناس الدين الحق والتدين به ، فكيف رآه الرسول صلى الله عليه وسلم وقد جاء بخير دين ، وقدجاء بخاتم الديانات السماوية من لدن الله تعالى العليم الحكيم ، ثم ماذا عمل وقد واجه هذا العالم الفاسد المختل فى كل نواحيه

لقد بعث خاتم الانبياء والمرسلين والعالم - كما يذكر الاستاذ أبو الحسن على الحسنى الندوى - بناء أصيب بزلزال شديد هز هزا عنيفا من أقصاه الى أقصاه ، فاذا كل شىء فيه فى غير محله ، فمن أثاثه ومتاعه ما تكسر ، ومنه ما التوى وانعطف ، ومنه ما فارق محله اللائق به وشغل مكانا آخر ، ومنه ما تكدس فصار ركاما بلا نظام

ثم أخذ ينظر الى هذا العالم بعين الانبياء ، فرأى الملوك قد اتخذوا بلاد الله دولا ، وعبيد الله خولا ، وأحبارا ورهبانا أصبحوا أربابا من دون الله ، يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، وليس لهم من الدين الا اسمه ورسمه دون حقيقته وروحه

ورأى مجتمعا هو صورة مصغرة للعالم الفاسد المنحور ، كل شىء فيه فى غير محله ، قد اصبح الذئب فيه راعيا ، والخصم الجائر قاضيا ، والمجرم

سعيدا حظيا ، والصالح محروما شقيا ، لا أنكر في هذا المجتمع من المعروف ولا أعرف فيه من المنكر . وذلك بأنهم انحرفوا عن الدين الحق ، وأصبحوا لا يأخذون أنفسهم بشيء من تعاليمه وشرائعه وأخلاقه

رأى انسانا قد هانت عليه انسانيته ، فأصبح يخضع لغير الله، بل لانسان مثله فهو يرجوه ويخافه من دون الله ، حتى أنه صار يسجد للحجر والتماثيل والاصنام ويتخذها أربابا من دون الله

ورأى تقاليد وعادات فاسدة تتعجل فناء البشرية ، وتسوقها الى هوة الهلاك ، رأى معاقرة الخمر الى حد الادمان ، والفجور الى حد الاستهتار ،

وتعاطى الربا الى حد الاغتصاب واستلاب الاموال ، وشهوة المال الى حد الجشع ، والقسوة والظلم وجمود القلب الى درجة وأد البنات وقتل الاولاد

رأى المواهب البشرية زائفة ، أو ضائعة لم ينتفع بها ولم توجه التوجيه الصحيح ، فعادت وبالا على اصحابها وعلى الانسانية ، فقد تحولت الشجاعة فتكا وهمجية ، والجود تبذيرا واسرافا ، والانفة حمية جاهلية ، والعقل أداة لابتكار الجنايات والابداع في ارضاء الشهوات

وأخيرا رأى نبي الدين الحق الجديد العالم ركاما من الافراد والشعوب والامم ، بلا رابطة تجمع بينهم ، ولا غاية تؤلف بين قلوبهم، فقد نبذوا الدين وراءهم ظهريا ، وصارت الاخلاق الفاضلة عندهم نسيا منسيا ، فهم لايتناهون عن منكر فعلوه ، ولا يتواصون بالحق فيما بينهم ، ولا قيمة عندهم الا للقوة والسلطان ، ولا مقياس للمجد الا شدة البأس ووفرة الثراء

هكذا كان العالم الذى واجهه الرسول وقد أرسله الله لاصلاحه ، وكذلك كان شأنه وقد خلا من الدين الصحيح يتدين الناس به ويسيرون على نوره وهديه ، فماذا كان أمر هذا العالم من بعد وقد أشرق عليه الدين الذى ارتضاه الله للناس جميعا ، وملك على متبعيه قلوبهم وعقولهم ، وصاروا يأخذون أنفسهم به في كل شئون الحياة ؟

موعدنا بالاجابة عن ذلك ، وبيان ما صاراليه العالم بفضل الاسلام والتدين ، الكلمة الآتية ان شاء الله تعالى

محمد يوسف موسى